

كتاب مستقبل الثقافة في مصر

الثقافة العامة

وتعليم اللاتينية واليونانية

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

(تابع)

—

أما الفوائد التي تمزى إلى «تعليم اللاتينية واليونانية» من وجهة خدمات هذا التعليم لـ «تثقيف العقل وتقوية المحاكاة» فمن الأمور التي تحتاج إلى إنعام النظر من وجوه عديدة :

فإن نظم المعارف السائدة في أوروبا ، كانت جعلت «الدراسة الثانوية الممزوجة بتعليم اللاتينية واليونانية» السبيل الوحيد الذي يؤدي بالطلاب إلى الدراسات العالية . ولا حاجة للبرهنة على أن عدم وجود سبيل آخر يؤدي إلى ميادين الفكر والثقافة النفسية ، لا يمكن أن يعتبر دليلاً على عدم إمكان إيجاد سبيل أخرى أقصر وأحسن وأنفع من ذلك السبيل . . .

كما أن ذكر الأمثلة الكثيرة عن أعظم العلماء الذين كانوا

ولما الذي يكسب الحلف وزناً جديداً وقيمة عملية من المسير أن تيسر له الآن هو استقلال فلسطين وسوريا ودخولها في الحلف وبذلك تصبح البلاد العربية (إلى آخر حدود مصر الغربية) كتلة واحدة حقيقية في وسعها أن تتعاون على مواجهة الطوارئ وملاقة الأحداث ودفع الأخطار . وليس ذلك لأن سوريا وفلسطين أكثر عدداً أو أوفر مالا أو أقدر أو أكفاً بل لأن بقاء هذه البلاد خاضعة لسلطان دول أجنبية يشطر البلاد العربية شطرين ويجعل التعاون العملي بين الشطرين متعذراً ويحول دون القيمة التي يسهل أن تستفاد من اتصال الحدود وزوال الفواصل والموانئ

وإلى أن يتم استقلال سوريا وفلسطين لا يجوز الاكتفاء بالقول أن الحلف العربي موجود وقائم وأن بابه مفتوح لمن يريد الدخول فيه فما يتغير شيء حقيقى بدخول مصر فيه قبل استقلال سوريا وفلسطين . وإلى هذا ينبغي أن يتجه السمع قبل كل شيء . وما أظن إلا أن إخواني في العراق يقرون هذا الرأي .

براهيم عبد القادر المازني

من النابغين والمتقدمين في دروس اللاتينية ، لا يمكن أن يبرهن على أية قضية كانت في هذا المضمار . لأن التفكير العلمي الصحيح يتطلب التساؤل - تجاه مثل هذه الأمثلة - عما إذا كانت اللاتينية من عوامل نمو عقل هؤلاء العلماء ، أم أن مواهبهم العقلية كانت من أسباب تقدمهم في اللاتينية ؟

ونرى من المفيد أن نوضح هذه القضية بمثال مادي : لنفرض أننا أخذنا حفنة من الحبوب وغربلناها بفريل معين ؛ من الطبيعي أن هذا الفريل سيسقط الحبوب الصغيرة ، وسوف لا يحتفظ إلا بالحبوب الكبيرة . فهل يجوز لأحد أن يدعى - عند ما يشاهد هذه الحبوب الكبيرة - أن الفريل سبب «تنمية الحبوب» ؟ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى هل يجوز لأحد أن يدعى أن هذا الفريل هو الوسيلة الوحيدة لاقتناء البذور ؟ أو أن الفريلة هي أحسن الوسائل لهذا الاقتناء ؟ وهل لأحد أن ينفي احتمال سقوط بعض الأنواع من البذور الثمينة والنافعة - مع ما يتساقط من الفريل ؟ أو ألا يسلم باحتمال بقاء الأنواع من البذور الرديئة والمضرة ، بين ما يبقى في الفريل ؟

إننا لا نقصد في سوق هذا المثال وإيراد هذه الأسئلة أن ندعى أن «عمل اللاتينية في العقول لا يختلف عن عمل الفريل في الحبوب» بل إننا نود أن نقول : إن هذه القضايا كثيرة التعقيد كما يظهر من المثال المادي البسيط الذي ذكرناه ؛ فلا يجوز لنا أن نبت في مثل هذه القضايا قبل أن ندرسها من جميع وجوهها ونقوم بأبحاث دقيقة وشاملة في شأنها . . .

فلنتفكر كيف يمكن أن يؤثر «تعليم اللاتينية» على القابليات العقلية . لا شك في أن هذا التأثير يجب أن يتجسم عن ممارسة تمارين الترجمة التي تجري خلال هذا التعليم . فإن الترجمة تحمل الطالب بطبيعتها على القيام بأعمال ذهنية هامة : إنها تمرنه على نقل الفكرة الواحدة ، أو المعنى الواحد من لغة إلى لغة أخرى ؛ وذلك يضطره إلى تحليل المعاني والمعارف إلى عناصرها المختلفة ، ويحمله على إجراء مقارنات دقيقة بين عبارات اللغتين ويسوده ملاحظة أسرار الفروق وأدق الألوان في معاني الألفاظ والمعارف التي تعرض عليه أو تخطر بباله . . . إن الفوائد التحقيقية التي ينتظر الحصول عليها من تعليم اللغة اللاتينية أو اليونانية ، لا تخرج عن نطاق فوائد هذه التمارين من وجهة تأثير على القابليات العقلية . ولا مجال للشك في أن جميع هذه الفوائد لم تكن من خصائص

كما يمكن أن تجرى دون وساطتها ، بل بواسطة أية لغة من اللغات الحية الزاكية ...

إن المناقشات التي ثارت حول مسألة تعليم اللغات القديمة لم تحمل وزارات المعارف في فرنسا على إحداث بعض الإصلاحات لمجابهة الحاجات إلا بعد انقضاء النصف الأول من القرن الأخير وأما أول التدابير العملية التي اتخذت في هذا الباب فقد كان إحداث نوع جديد من الدراسة الثانوية في عهد وزارة (ديكتور دوروي) . عرف هذا النوع الجديد باسم « التعليم الخاص » واستغنى عن تعليم اللغات القديمة ، وجعل غايته إعداد الطلاب للمدارس العالية الاختصاصية التي تفتح أمامهم سبل الدخول إلى الحياة العملية

غير أن إحداث هذا النوع من التعليم أثار هجمات أنصار اللاتينية ، كما أنه لم يحقق رغائب المجددين . فقد احتج عليه أنصار اللاتينية واليونانية قائلين « إن هذه الدراسة الجديدة مستجذب الشبان إليها من جراء قصر المدة التي تتطلبها والفوائد العملية التي تتضمنها ، وذلك سيؤدي إلى انصراف الشبان عن سبل العلم الخالص ، وإلى انحطاط الثقافة الفرنسية العالية » . قالوا لذلك بوجود تطويل مدة الدراسة فيها لإزالة أسباب الإغراء منها وأما معارضو اللغات القديمة فاتهم قالوا بأن هذا الإصلاح غير واف بالمرام ، لأنه أحدث سبيلاً جديداً للدراسات المهنية العالية وحدها ، وترك سبل الدراسات الجامعية على حالها ، في حين أنهم كانوا يطالبون بإصلاح تلك السبل أيضاً ؛ كانوا يمتقدون بوجود إحداث نوع في الدراسة الثانوية لا يقتصر في أهدافه الصامية عن أهداف الدراسة الكلاسيكية الراهنة ، ولا يهمل شيئاً من المرامي الثقافية التي عرفت باسم « الإنسانيات » منذ عصر النهضة . إنهم كانوا يدهون إلى إحداث « إنسانيات عصرية » تموض اللغات القديمة باللغات الحية ، دون أن تحيد عن أهداف العلم الخالص والدراسة الجامعية ...

ولذلك نابر هؤلاء على مطالبتهم إلى أن جاءت وزارة (ليون بورجوا) وخطط خطوة جديدة في السبيل الذي كانوا يدعون إليه ؛ إذ أنها حولت « التعليم الخاص » إلى فرع ثانوي جديد عرف باسم « التعليم العصري » . وأصبحت الدراسة الثانوية بعد ذلك متفرعة إلى فرعين متوازيين : كلاسيكي وعصري بدأ هذا الفرع الجديد يشق لنفسه الطريق بين أنواع شتى

تعليم اللاتينية أو اليونانية ؛ بل مما يمكن الحصول عليها خلال تعليم أية لغة من اللغات الحية الزاكية أيضاً ...

إن هذه القضية كانت من أهم المسائل التي احتدم النزاع عليها ودارت الباحثات والمناقشات حولها ... وقد قام عدد غير قليل من علماء النفس ورجال التربية ، يدرس هذه المسألة علمياً وتجريبياً . فقد قاموا باختبارات واسعة النطاق ، وبرهنوا على أن اللاتينية لا تتماز على سائر اللغات — من حيث القابلية التثقيفية — بوجه من الوجوه

فلا يجوز لنا مع ذلك أن نتوسل بتعليم لغة ميتة إلى « تثقيف العقل » ؛ بل الأجدر بنا أن نصل إلى التثقيف المذكور عن طريق تعليم لغة حية ليستطيع الطلاب أن يستفيدوا منها في الوقت نفسه طول حياتهم الفكرية والاجتماعية

وعند ما فكرت أنا في هذا الموضوع — على ضوء الآراء والأبحاث التي أشرت إليها — تذكرت قصة صغيرة كنت قرأتها في كتاب مدرسي ، بين موضوعات الإنشاء :

كان رجل يشتم في تدبير معاشه على نتاج مزرعته . فلاحظ يوماً أن البركة أخذت تذهب عن مزرعته ، وأن النتاج أخذ يقل عن حاجته ، فشكا حاله إلى أحد أصدقائه ، فوعده صديقه هذا بمسؤال أحد السحرة ، لتدبير مسأته . فأتى إليه — في اليوم التالي — بعلبة سحرية ، قال إنها كفيلة بإعادة البركة إلى مزرعته على أن يستصحبها معه كل ليلة إلى بعض أنحاء المزرعة — من الاصطبل إلى مخزن الحبوب — فأخذ الرجل يعمل بوصايا صديقه ويطوف بالعلبة السحرية في الأنحاء المذكورة . ولم تمض على ذلك مدة طويلة ، إلا وقد رأى أن العلبة عملت عملها السحري ، وأعادت البركة إلى مزرعته . غير أن هذه العلبة ، كانت في حقيقة الأمر علبة اعتيادية فارغة ؛ وأما سحرها ، فقد نتج من اضطراب الرجل إلى الطواف بها ليلاً في مختلف أنحاء مزرعته ؛ لأن هذا الطواف ، ساعده على ملاحظة أحوال مزرعته ، ومراقبة أعمال مآجوره ، ووضع حد لجميع الأسباب التي كانت تؤدي إلى تناقص موارده .

إنني أشبه عمل اللاتينية في حقل التفكير ، بعمل « العلبة السحرية » التي ذكرتها . فإن السحر ليس فيها ، بل في الأعمال الذهنية التي تجرى بواسطتها . ولا حاجة للبيان أن هذه الأعمال

وأخيراً كان في خدمة الدراسة الكلاسيكية جيش كبير من المعلمين المتميزين المزودين بأحسن الاختبارات وأطول التقاليد ؛ في حين أن الدراسة المصرية كانت في حاجة شديدة إلى معلمين خبيرين ، يحسنون القيام بالهام المطلوبة من هذه الدراسة الجديدة ...

ومع كل ذلك قامت الدراسة المصرية بأعباء الثقيف أحسن قيام وأعطت نتائج باهرة ، لا تقل عن نتائج الدراسة الكلاسيكية واللجنة قررت (بعد ما اقتنعت بذلك) إبقاء الفرع المصري في الدراسة الثانوية (مع العمل لتوسيعه وترقيته) ومع هذا قررت في الوقت نفسه الاستمرار على اشتراط معرفة اللاتينية ، للقبول في كليتي الطب والحقوق . غير أنه مما يلفت الأنظار ، أن القرار الأخير لم يتخذه إلا أ كثرية ضئيلة جداً لأن الأصوات التي ألزمت جانب اشتراط اللاتينية للقبول في الكليتين المذكورتين لم تتغلب على مخالفيها إلا بصوت واحد فقط !

ولإظهار قوة الآراء المخالفة لذلك ، أود أن أذكر بعض الفقرات المستخرجة من التصريحات التي أدلى بها ثلاثة من رجال العلم والفكر في هذا الصدد : وهم ليون بورجوا ، وأرنست لاويس ، ورعون بوانكاريه ...

قال الأول ما مؤداه : نحن لم نعتقد أن الذين ينتفقون بالدراسات القديمة ، هم وحدهم جديرون بتكوين الأرسوقراطية الفكرية ؛ بل اعتقدنا بإمكان « إنسانيات عصرية » ، مستقلة عن اللغات القديمة ، اعتقدنا بأننا نستطيع أن نعطي نوعاً من الثقافة العامة ، تختلف عن الثقافة الكلاسيكية ، دون أن تكون أقل سمواً منها ... فإن الدراسات الكلاسيكية بطبيعتها « كلامية » فلا تسد حاجات عصرنا هذا ، ومطالبه الفكرية الأدبية والاجتماعية ... إن العالم قد تبدل تبدلاً أساسياً منذ عشرين قرناً ؛ فالثقافة الكلاسيكية التي توارثت مكتسبات الحضارات القديمة وقيمها ، أصبحت بعيدة عن ملامة الحضارة الحالية ... »

ثم جابه مخاطبيه بالسؤال التالي : « أيها السادة ، لنستطلق أنفسنا بكل صراحة ؛ من منا يستطيع أن يقول بأنه تذوق ما في مآسى « سوفوكليس » . أو محاورات أفلاطون ، من جمال فني ، على طريف قراءة نصوصها الأصلية ... إذا لم يكن قد أولع باللغات القديمة ولما شخصياً ، فتمحق في دراستها بعد

من الموانع والمشاكل - من قلة الوسائط إلى خصومة المحافظين وعراقيل الممارسين - إذ أن أنصار اللغات القديمة والتعليم الكلاسيكي بذلوا كل ما لديهم من قوة لتحذير أولياء الطلاب من الاعتماد على نتائج هذه البدعة ، وحرصوا حرصاً شديداً على إبقاء الجامعات موصدة الأبواب أمام متخرجي الفرع المصري من الدراسة الثانوية

فاستمر النزاع والنقاش ، ووصل الأمر - في أواخر القرن - إلى درجة من الحدة اضطر معها مجلس الأمة إلى القيام بتحقيق برلماني خاص ؛ فألف لجنة لدرس مسألة الدراسة الثانوية من جميع وجوهها دراسة واسعة النطاق . فاستمعت اللجنة لآراء عدد كبير من رجال العلم والأدب والتربية والتعليم ، من رؤساء الكليات والجامعات إلى كبار رجال العمل في المهن المختلفة وخصصت في أبحاثها موقفاً خطيراً لدرس مسألة التعليم المصري والتعليم الكلاسيكي وقد أظهر هذا التحقيق الشامل عدة حقائق مهمة حول مسألة تعليم اللغات الميتة في المدارس الثانوية

إن الدراسة الكلاسيكية المستندة إلى تعليم اللغات القديمة ، كانت لا تزال تتمتع بشهرة عظيمة بين أولياء الطلاب . كانت المثقفون منهم قد نشأوا نشأة كلاسيكية ، فتمودوا أن ينظروا إلى أن معرفة اللاتينية - معرفة تمكن من ترصيع الكلام ببعض عبارات منها عند الاقتضاء - من دلائل « الامتياز الفكري » ولوازم « الأرسوقراطية المعنوية » ؛ ولذلك قلما كانوا يرضون لأولادهم نوعاً من الثقافة تحرمهم هذا الامتياز ، وتخط من منزلتهم الاجتماعية . وأما الذين نشأوا نشأة أبسط من ذلك - ومع هذا أخذوا يطعمون برفع منزلة أولادهم عن طريق تعليمهم تعليماً راقياً - فكانوا لا يرضون لأولادهم أن يفرقوا عن أولاد الفريق الأول في هذا الميدان ... ولهذا ظلت رغبة الأ كثرية سجيحة نحو التعليم الكلاسيكي القديم ...

وزد على ذلك أن معظم مديري المدارس الثانوية ومعلميها أيضاً كانوا متشبعين بفكرة تفوق الدراسة الكلاسيكية على المصرية ؛ ولذلك كانوا لا يفتأون يشوقون التلاميذ الأذكياء إلى اختيارها ... حتى أن البعض منهم كان يقال في هذا الاعتقاد أشد الغفالة ، فيظهر الفرع الجديد بمظهر « ملجأ المتأخرين » من الطلاب ، وينذل كل ما لديه من قوة لإقناع المتفرقين منهم للرغبة من هذا الفرع ...

مضار ... فإننا إذا شاهدنا محافلنا البرلمانية تسترسل في المناقشات البرزنتية إلى الحد الذي نرفه ، يجب أن نعلم أن مصدر ذلك إنما هي الأساليب الرومانية التي تعودناها في تفهم وتصور المناقشات الحقوقية »

غير أن هذه الحجج القوية وأمثالها من التصريحات ، لم تتمكن من زعزعة الاعتقادات القديمة كلها من أذهان جميع أعضاء اللجنة البرلمانية ، ولذلك أيدت اللجنة — بأكثرية صوت واحد — النظام التبع في اشتراط معرفة اللاتينية للدراسة الحقوقية . غير أن مسألة الأكثرية التي أقرت ذلك كانت دليلاً واضحاً على أن الحل المذكور لم يكن من الحلول التي تطمئن إليها الأفكار ، وتستقر عندها الأمور . بل كان من الحلول المؤقتة التي تؤجل النتيجة النهائية ، دون أن تضع حداً حاسماً للاختلافات . فكان من الطبيعي ألا تقف الأمور عند هذا الحد ، فتستمر المناقشات إلى أن يتقرر « مبدأ المساواة » بين الثقافتين الكلاسيكية والعصرية وهذا ما حدث فعلاً ، فإن مناهج الدراسة التي وضعت بعد التحقيق البرلماني الآنف الذكر ، حاولت أن توجد حلاً متوسطاً لكثير من المشاكل فأوجدت مثلاً نوعاً جديداً من الدراسة الثانوية ، يحتفظ باللغة اللاتينية ، ويضحي باليونانية لتعرضها بالعلوم أو اللغات الحية . ولا شك في أن هذا النوع كان يشغل موقفاً متوسطاً بين « الكلاسيكية الفجة » التي تتمسك باللغتين القديمتين في وقت واحد و « العصرية البحتة » التي تستغني عن هاتين اللغتين مرة واحدة ...

غير أن الإصلاحات التي تقررت بعد الحرب العالمية ، انتهت (بعد شيء من الجزر والملد) بتقرير حق المساواة بين الدراسة الكلاسيكية والدراسة العصرية ، واتخذت عدة تدابير عملية لضمان هذه المساواة بصورة فعلية ...

هذا هو ملخص الأطوار الأساسية التي مرت بها مسألة تعليم اللاتينية واليونانية في المدارس الثانوية والفرنسية .

(يتبع) أبو هنري

الانتهاء من الدراسة الكلاسيكية ؟ أما أنا فأعترف — من جهتي — بكل إخلاص — بأنني لم أفهم عظمة « أوديب الملك » إلا في الكوميدي فرانسيز ... مع أنني كنت من البرزين في دروس اللغات القديمة وآدابها ... »

وأما « أرنست لاويس » — الذي يعد من أشهر كتاب التاريخ في فرنسا ، والذي ظل مديراً لدار المعلمين المالية مدة طويلة — فقد اعترف خلال تصريحاته بأنه كان مرتاباً في نجاح تجربة الدراسة العصرية — عند إحداثها — غير أنه تخلص من هذا الريب ، بعد أن رأى النتائج الفعلية ، فأصبح يعتقد بأن قيمة الثقافة التي تكتسب خلال مثل هذه الدراسة ، لا تقل — بوجه من الوجوه — عن قيمة الثقافة التي تكتسب من الدراسة الكلاسيكية . وزيادة على ذلك فقد رأى القائل بضرورة اللاتينية لإجادة الفرنسية ؛ وصرح باعتقاده الجازم في مساواة قيمة الثقافتين ؛ وقال بأن « الحجج التي تذكر لتبرير إحصاء أبواب كليات الحقوق والطب أمام خريجي الدراسة العصرية ، ما هي إلا من قبيل الأوهام الباطلة التي لا تستند إلى تجربة وتفكير » وأظهر استعداده لمناقشة القضية ، عند الاقتضاء .

وأما « بوانكاره » الذي كان من كبار رجال الفكر والحقوق ، والذي قام بأعباء وزارة المعارف ، وتدرج بعد ذلك إلى رئاسة الوزراء فرياسة الجمهورية — فهو أيضاً قد دافع عن الدراسة العصرية من وجهة قيمتها الثقافية ودفاعاً حاراً ؛ ورد على آراء القائلين بضرورة اللاتينية للدراسات الحقوقية رداً عنيفاً ؛ فقد قال — في هذا الصدد — ما مؤداه :

« إنني لا أستطيع أن أسلم بضرورة معرفة اللاتينية لدرس الحقوق الرومانية بل أقول بإمكان درس هذه الحقوق بأساليب جديدة غير التي تعودناها إلى الآن ، كما أعتقد بأنه لم يبق لهذه الحقوق من فائدة سوى متعتها التاريخية . فلمت متاعاً كذاً من أن الاستمساة عن دراسة الحقوق الرومانية بدراسة الشرائع الماصرة ، لا يكون أشد موافقة وأكثر ملاءمة لمقتضيات الثقافة الحقوقية العصرية »

« هذا ، وإن ساذب إلى أبعد من ذلك وسأزيد على قولي قولاً آخر — مع على بأن هذا القول سيمتد في نظر البعض من ضروب الكفر والإلحاد — فأقول بدون تردد : إن سيطرة الحقوق الرومانية على الفكر الفرنسي للماصر ، لا تخلو من

